حرب الأنفاق في قطاع غزة

19-12-2004

وتقول مصادر عسكرية إسرائيلية إنه في الوقت الذي ينجح فيه الجيش الإسرائيلي في اكتشاف نفق وتفجيره، ينجح الفلسطينيون في حفر عدة أنفاق أخرى في ذات الوقت تقريبا، وهو ما يجعلهم متقدمين بمراحل على الجيش الإسرائيلي

بقلم وسام عفيفة

سلاح جديد ابتكرته المقاومة الفلسطينية دخل المعركة بقوة، حيث "تغضب" الأرض بسواعد المجاهدين فتنفجر وتبتلع مواقع الصهاينة الحصينة... حفر الأنفاق يعتبر من أقدم الوسائل التي استخدمها الفلسطينيون لتهريب السلاح عبر مصر إلى قطاع غزة، غير أن هذه الأنفاق سرعان ما تحولت إلى سلاح بأيدي المقاومة الفلسطينية للوصول إلى المواقع العسكرية والمستوطنات الإسرائيلية، وذلك بسبب صعوبة اختراق الجدران والأسلاك المكهربة وتجاوز كاميرات المراقبة، وقد جاءت العملية العسكرية الأخيرة (11-12-2004) التي استهدف من خلالها مقاومون من كتائب القسام وصقور فتح موقعا عسكريا قرب معبر رفح ليفتح قضية الأنفاق التي تستخدمها المقاومة الفلسطينية لتهريب الأسلحة أو لتفجير المواقع العسكرية الإسرائيلية أو التسلل للمستوطنات في قطاع غزة.
وقد بدا أن الحكومة الإسرائيلية أصبحت عاجزة عن إيجاد حل لهذه المعضلة رغم أنها هدمت أكثر من 1650 منزلا (بحسب إحصاءات محافظة رفح) قرب الشريط الحدودي بهدف منع الفلسطينيين من استخدامها لحفر الأنفاق، كما أنها اعتقلت العشرات ممن تعتقد أنهم يقفون وراءها وجرت مشاورات مصرية إسرائيلية عديدة للتخلص من هذه المشكلة لكن بدون جدوى. كما أعدت خطة لحفر قناة مائية عميقة على طول محور ما يسمى "فيلادلفيا"، تقطع رفح الفلسطينية عن رفح المصرية (جنوب قطاع غزة)، بهدف المنع التام لإمكانية حفر أنفاق بين شطري المدنية. وحتى اللحظة يقر المحللون الإسرائيليون بالفشل في وقف حفر الأنفاق المفخخة التي باتت طريقة مفضلة لضرب الجيش الإسرائيلي من حيث لا يتوقع.

* نفق ينفجر وآخر يحفر:

وتقول مصادر عسكرية إسرائيلية إنه في الوقت الذي ينجح فيه الجيش الإسرائيلي في اكتشاف نفق وتفجيره، ينجح الفلسطينيون في حفر عدة أنفاق أخرى في ذات الوقت تقريبا، وهو ما يجعلهم متقدمين بمراحل على الجيش الإسرائيلي. ويقول المحلل عاموس هارئيل في صحيفة "هآرتس"(12-12) إن الجيش الإسرائيلي لا يزال يبحث عن طريقة لحماية جنوده من تفجير الأنفاق التي تتوغل داخل عمق مواقعه. وقد أفادت صحيفة "يديعوت أحرونوت" (يونيو 2004) أن الجيش الإسرائيلي أقدم، ولأول مرة، على استئجار خدمات شركة أجنبية خاصة للتفتيش عن أنفاق مفخخة في قطاع غزة. وقد بدأ طاقم الشركة الأمريكية، العمل في منطقة معبر رفح، بعد وصول تحذير إلى الجيش الإسرائيلي بشأن قيام الفلسطينيين بحفر نفق سيتم تفخيخه، تحت المعبر الحدودي،.وقالت الصحيفة إن الأنفاق المفخخة تشكل أكبر خطر يتهدد المواقع العسكرية في قطاع غزة.
وتم، بحسب الصحيفة، وضع أجهزة خاصة في المواقع العسكرية في مستوطنة "غوش قطيف"، بهدف الكشف عن الأنفاق. وتم وضع تلك المعدات هناك لتجربتها. وقبل ثلاثة أسابيع تلقى الجيش تحذيراً ساخناً أشار إلى وجود نفق تحت معبر رفح، وتم استئجار خدمات الشركة الأمريكية، بالتعاون مع معهد الهندسة التطبيقية (التخنيون)، للكشف عن النفق. وقال ضابط إسرائيلي كبير "إن الظروف في رفح تحتم توفر معدات متطورة".

* الأنفاق: نقلة نوعية

وأفادنا أحد قادة القسام (يدعى أبو مصعب) بأن استخدام الأنفاق شكل نقلة نوعية لأعمال المقاومة، إذ إنه يمنحنا ميزات كبيرة، من بينها القدرة الكبيرة على الاختفاء والوصول إلى الهدف بدقة، غير أنه أشار إلى إن حفر النفق يتطلب مجهودات خاصة وأموالا طائلة فضلا عن السرية الكبيرة التي تحيط بعمل قد يشغل شهورا طويلة.
ويقول (أبو مصعب): "إن الشباب هنا نشطون جدا، إنهم يعملون ليل نهار ولا ينتظرون أن ندفع لمهم أموالا، لأنهم يعتقدون أن ذلك جهاد في سبيل الله".
ووصف الناطق باسم حركة حماس في رفح فوزي برهوم أن عملية حفر النفق شاقة وتحتاج إلى وقت طويل. وقال إن حفر النفق في العملية الأخيرة استمرت أربعة شهور تمكن خلالها نحو 20 مقاوما من حفر 800 مترا وصولا إلى الموقع العسكري الإسرائيلي بعمق عشرات الأمتار، وأضاف برهوم أن المقاومة الفلسطينية تعتمد في حفر الأنفاق على خبراتها الهندسية والتكنولوجيا والمعدات الميكانيكية. ويشير برهون إلى أن المقاومين يبحثون عن مناطق آمنة لحفر الأنفاق كي لا يكتشفوا وليتمكنوا من إخراج الأطنان من التراب بسهولة ودون لفت الأنظار إليهم. واعتبر برهوم أن المحافظة على سرية العمل من أهم عوامل النجاح. وأشار برهوم إلى أن أكثر المراحل صعوبة في عملية الحفر هي عملية إدخال معدات الحفر الثقيلة إلى داخل النفق. وقال أبو أنس: "لقد اكتسبنا خبرة كبيرة في حفر الأنفاق خصوصا ذات المسافة الطويلة، بحيث نصممها على ألا تنهار خلال عملية الحفر"، ويشير إلى أن: "جميع تجاربنا ناجحة في هذا المجال، وقد حققنا كثيرا من الضربات العسكرية ضد مواقع الجيش"، غير أنه يوضح بأن قوات الجيش الإسرائيلي تنجح أحيانا في كشف بعض الأنفاق، لكننا سرعان ما نبحث عن بديل آخر.

* ضربة تلو ضربة:

وقد تمكنت المقاومة الفلسطينية وخاصة حركة حماس من توجيه العديد من الضربات من خلال أسلوب الأنفاق المتفجرة، وفي نوفمبر 2004 نجح مقاتلون فلسطينيون ينتمون إلى كتائب القسام في استدراج وحدة إسرائيلية خاصة إلى نفق مفخخ بالقرب من معبر كارني شرق مدينة غزة، وقتل في الهجوم جندي إسرائيلي وأصيب خمسة آخرون، فيما استشهد اثنان من مقاتلي حماس.
. وفي شهر يونيو الماضي نجحت كتائب القسام في تفجير موقع "محفوظة" العسكري والواقع على الطريق التي تربط جنوب القطاع بوسطه، وقد تم تفجير الموقع بالكامل وهو ما أسفر عن مقتل وإصابة ما يزيد عن 15 جنديا إسرائيليا. وفي تفاصيل عملية رفح فإن حفر النفق وتزويده بالمتفجرات التي قدرت بطن ونصف استغرق أربعة أشهر كاملة. يشار إلى أن عملية مماثلة وقعت في أواخر العام 2001 تحت الموقع العسكري "ترميت" في رفح وأدت إلى تدمير أجزاء كبيرة منه، كما أدى إلى مقتل وإصابة عدد من جنود الجيش الإسرائيلي، كما نفذت عملية أخرى العام الـماضي في موقع آخر على الحدود الفلسطينية المصرية.
وبنظر المحللين، فإن عملا من هذا النوع يتطلب عددا كبيرا من الأشخاص، وسرية تامة، وتغطية أمنية وعسكرية، وهو أمر عجزت معه الاستخبارات الإسرائيلية عن التقاط أي طرف خيط يؤدي للمخططين أو المنفذين رغم طول مدة التنفيذ. وقالت الصحف الإسرائيلية إن الجيش الإسرائيلي تمكن خلال الثلاثة أشهر الأخيرة بالكشف عن 12 نفقاً وتفجيرها، لكنه يعتقد بأن هناك العشرات من الأنفاق موجودة على طول حدود مدينة رفح التي تبلغ نحو ثمانية كيلومترات. وتتراوح تكلفة النفق ما بين 10 آلاف إلى عشرين ألف دولار وهي تتضمن ماكينات للحفر وعربات نقل وأجهزة تهوية وإضاءة، وغالبا ما يعمل بها متطوعون من المنظمات الفلسطينية بدون مقابل.
وفي أوقات سابقة أيضا تمكنت حركة حماس من تفجير موقع "ترميد" على الشريط الحدودي في رفح وموقع حردون في إطار حرب الأنفاق.
* مخاوف إسرائيلية من اتساع الظاهرة:
وفي تصريحات غاضبة أعرب رئيس الوزراء الإسرائيلي اريئيل شارون عن قلقه الشديد من أن تتفاقم حرب الأنفاق ضد الجيش الإسرائيلي وتمتد إلى الضفة الغربية، قائلا إن هذا هو أخطر سلاح يستخدمه الفلسطينيون منذ بداية المقاومة ويشكل طفرة نوعية في العمل العسكري للانتفاضة. وأوضح أن إسرائيل لن تقبل بأن يستمر الفلسطينيون فيه وأن ذلك سيكون بمثابة انعطاف حاد في الحرب يستدعي تحولا في أسلوب الرد الإسرائيلي.
وقد بدأ الجيش الإسرائيلي بفحص إمكانية الاستفادة من خبرة الجيش الروسي في مواجهة الاتفاق. وطلب من الروس الموافقة على إرسال وفد من الخبراء في سلاح الهندسة في الجيش الإسرائيلي إلى روسيا على وجه السرعة لتلقي دروس في الموضوع، حيث إن الجيش الروسي هو أكثر الجيوش في العالم خبرة في هذا الجانب. فقد استخدم بنفسه الأنفاق في مواجهة الهجوم النازي خلال الحرب العالمية الثانية، وهو الذي وقف وراء حرب الأنفاق في فيتنام ضد الأميركيين في السبعينيات، وهو الذي واجه حرب أنفاق في أفغانستان قبل الانسحاب الروسي منها.
من جانبه قال الناطق باسم معهد "هتخنيون"، أهم المؤسسات البحثية الإسرائيلية في مجال التقنية المتقدمة أن المعهد يعمل على بلورة منظومة إلكترونية للكشف عن الأنفاق بحيث تعمل على عمق أكبر، وفي التخنيون جرى الفحص المسبق لنموذج عن المنظومة قبل ثلاث سنوات، وتمكنت من العثور على أنفاق في عمق بضعة أمتار. وأكد الناطق بلسان التخنيون في حيفا أمس بأنه يجري الآن في مختبرات المؤسسة تطوير منظومة تعمل على عمق أكبر. منظومة الكشف عن الأنفاق طورها مختبر التخنيون على سبيل التفاعل بين الأرض والآلات، وكُشف النقاب عنها لأول مرة في كانون الأول 2001، وكذا حساسات صغيرة مهمتها العثور على الحركة، الصوت والضجيج، لتشخيص أعمال الحفر أو الزحف داخل نفق قائم. المشكلة التي يحتاج الخبراء للتصدي لها تتعلق بقدر أكبر بنوع الأرض التي تُدس فيها المنظومة وبقدر أقل بعمق النفق. فالوسائل التكنولوجية جُربت بنجاح في أرض النقب، ولكن المشكلة هي أنه في منطقة رفح، فإن الأرض فيها أكثر إشكالية. في منطقة جنوب القطاع يجب استخدام جملة من المعدات مع منظومة حاسوب يمكنها أن تعالج المعلومات الملتقطة من كل واحد من الحساسات وصياغته في صورة موحدة.